الخوري جان عزّام

مقدّمة

هذا النص المأخوذ من نشيد الأناشيد يشكّل وحدة أدبيّة متكاملة، وقد جرت العادة بربطه بالقصيدة اللاحقة (٤: ٩ – ٥: ٢). كما أنّه نال حظّاً وفيراً من شروحات الآباء والمفسّرين التي اختلفت في بعض معانيها، ولكنّها اجتمعت على صعوبة تفسير بعض الكلمات مثل: معي، عروس، مرابض الأسود، وجبال النمور...

هذه المقالة هي محاولة بسيطة لتفسير هذا النص من الناحية اللغويّة والأدبيّة، من جهة، ومن الناحية الرمزيّة واللاهوتيّة، من جهة أخرى.

١ – شرح لغوي أدبي

منذ سنة ١٨٩٨، اعتبر أحد مفسّري سفر نشيد الأناشيد أنّ هذا النص (نش ٤: ٨) موجود خارج إطاره، وليس مفهوماً ما كانت تفعل الحبيبة في الجبال بين النمور والأسود[١].

من جهة ثانية، يرد لقب عروس ستّ مرّات متتالية هنا وفي القصيدة التابعة فقط (٤: ٩ – ٥: ٢)، حيث يدعو الحبيب محبوبته لكي تخرج من تلك الجبال العالية من لبنان، وتأتي معه إلى جنّته حيث يعيشان معاً في الحبّ والسلام. والكلمة التي تعني عروس في العبريّة هي «كَلَّهْ» (כַּלָּה)، وهي تعني أيضاً لقباً شريفاً للحبيبة يدلّ على انتسابها إلى أصل ملكيّ شريف[٢]. وهذا ما يفسّر وجود هذا اللقب هنا فقط في سفر نشيد الأناشيد، في القصيدة المعروفة بـ «قصائد لبنان» (٤: ٨–٥: ٢)، أيّ أنّ العروس هي على الأرجح أميرة لبنانيّة.

أمّا كلمة «معي» فهي ذات دلالة كبيرة، وإن تكن تشكّل صعوبة كبيرة لفهم النص. فالترجمة السبعينيّة بدّلت كلمة «إتّي» (אִתִּי) العبريّة، وتعني «معي»، بكلمة "Deuro" اليونانيّة التي تقابلها كلمة «إتي» (אֵתִי) العبريّة، وتعني «تعالي». وهذا التعديل غير ضروري بحسب رأيي، لأنّ النص العبري فيه موازاة شعريّة ولغويّة كاملة قائمة على ترداد لفظة «معي» مرّتين في بداية كل شطر، فتتبعها كلمة «من لبنان» أيضاً في الشطرين، ثمّ الفاعل «أيّتها العروس» في نهاية الشطر الأوّل، وفعل «ستأتين» في نهاية الشطر الثاني. أمّا البيت الثاني فيبدأ بفعل «تنزلين» وهو موصول بالبيت الأوّل بطريقة التقاطع (Chiasme). ويتحكّم هذا الفعل بحرف الجرّ «من» والمرتبط بدوره بمكان في لبنان، هو جبل حرمون المعروف أيضاً عند اللبنانيّين القدماء باسم «سيريون» أو «سنير» أو «جبل أمانة» (نش ٣: ٩). ولعلّ هذه الأسماء كلّها تشير إلى تلال مختلفة من جبل حرمون المعروف في أيّامنا باسم «جبل الشيخ». فالبيت الأوّل يحدّد إذاً المكان الذي ستخرج منه العروس أي «من لبنان»، والبيت الثاني يوضح أنّ هذا الخروج هو عمليّة «نزول» من جبال لبنان العالية التي يصفها بأنّها مربض الأسود وجبال النمور.

---

١ – Cf. KEEL O., *Le Cantique des Cantiques* (Lectio Divina, Commentaires 6, Paris 1997) 169.

٢ – *Ibidem*.

ليس واضحاً إن كان الحبيب مع عروسه منذ بداية خروجها ونزولها، أي وجوده معها في لبنان ومرافقتها، أم انتظاره لها في البعيد ودعوته لها للخروج والنزول ليذهبا «معاً». اعتقد أنّ كلمة «معي» واضحة، وهي تعني مرافقة الحبيب لحبيبته في رحلتها من لبنان إلى المكان الذي يقودها إليه ليعيشا فيه معاً كزوجين. وليس من سبب يدفعنا إلى اعتبار العريس بعيداً عن عروسه لحظة خروجها من لبنان.

أخيراً يجب الإشارة إلى أنّ لبنان في الكتاب المقدّس له دلالات جماليّة خلاّبة، وكل ما فيه يجذب شعراء الكتاب المقدّس إلى عظمة جباله ورائحة البخور الفائحة من غاباته، وبخاصّة غابات الأرز والشربين...، حتّى قيل فيه في الأساطير القديمة إنّه مسكن الآلهة (قصيدة جلجامش، ٦:٦). ولذلك، فلبنان يمثّل أيضاً الشموخ والكبرياء، والبلد الغريب عن الأرض المقدّسة، حيث كانت بعد عبادة البعل والعشتروت الغريبة عن عبادة الإله الواحد[٣]، ولذلك فإنّ دعوة العريس عروسه إلى الخروج منه، هي دعوة إلى الخروج من مكان خلاّب ورائع الجمال، ولكنّه مليء بمخاطر الوثنيّة المرموز إليها هنا بالأسود والنمور[٤].

٢- شرح لاهوتي

إنّ زواج أمراء من الأرض المقدّسة بأميرات من لبنان أمرٌ معروف، وهذا كان يحصل كثيراً في إسرائيل وصيدون وغيرها من مدن لبنان، وأشهر هذه الزيجات زواج إيزابيل بنت ملك صيدون وآحاب ملك إسرائيل... غير أنّ الأجواء هنا متمايزة عن زيجات الملوك، حيث كانت الزوجات تأتين ومعهن عباداتهن الوثنيّة. بالعكس، فالأمر هنا شبيه بما يقوله المزمور ٤٥ متوجّهاً إلى ابنة صور بمناسبة زواجها بأحد الملوك العبرانيّين: «إسمعي يا ابنتي وانصتي، وانسي شعبك وبيت أبيك، لكي يشتهي الملك جمالك» (هذا المزمور نرتله في رتب الزواج المسيحيّة). فالعروس هنا تتخلّى عن عائلتها القديمة وتنتمي إلى عائلة جديدة، تترك عبادتها القديمة وتصبح على إيمان زوجها. بتعبير آخر، تتخلّى عن إنسانها العتيق لكي تنتمي إلى إنسانها الجديد. ولكنّها بالطبع غير قادرة أن تقوم بهذه المهمّة لوحدها، فلذلك يقول لها العريس: «معي ستأتين ومعي ستنزلين»، أي أنّ هذا الانسلاخ عن الذات بهدف الوصول إلى الانتماء الجديد أمر غير ممكن إلاّ إذا أتى العريس بنفسه إلى العروس ورافقها وساعدها. إنّها نفس الكلمة التي ردّدها الله لأحبّائه من الآباء والأنبياء القدّيسين قائلاً: «أنا معكم لا تخافوا»، وهذا ما سيقوله يسوع المسيح لتلاميذه مرّات عديدة. الشرط الوحيد لمن يرغب في أن ينتمي إلى الله وإلى يسوع المسيح هو: «من يأتي إليّ ولا ينكر ذاته لا يستطيع أن يكون لي تلميذاً». لبنان جميل جداً، ولكن ملكوت الله هو غاية العروس المنشودة.

أخيراً، لقد قرأ كثير من آبائنا القدّيسين هذا النص بمثابة صورة مسبقة للعذراء مريم القدّيسة. ونحن قد أنشدنا لها دائماً في صلواتنا: «هلمّي معي من لبنان يا عروس».

نعم، هي العذراء مريم التي أخرجت حواء القديمة من كبريائها وشموخها اللذين أوصلا البشريّة إلى الخطيئة والوثنيّة، وهي بتواضعها وانتمائها إلى الآب السماوي أصبحت عروس الروح القدس، فأدخلتنا من جديد إلى جنّة الآب المملوءة بالخيرات الحقيقيّة الدائمة. وابنها يسوع المسيح هو الذي يدعو كل نفس بشريّة إلى الخروج من الوثنيّة، مهما كانت جميلة، إلى الإيمان على مثال أمّه العذراء مريم.

فإذا كان لبناننا الحبيب هو صورة للجنّة بجماله وروعة مناظره، إلاّ أنّ تحوّله مع ذلك إلى مربض لأسود ونمور الوثنيّة هو خطر دائم عليه، إن هو تمثّل بحواء الأولى وبكبريائها؛ أمّا إن تمثّل بحواء الجديدة، العذراء مريم، وبتواضعها، فهو سيختبر أنّ الله قادر أن يأتيه كعريس حبيب ويخلصه من الأسود والنمور، ليعيده إلى ذاته الحقيقيّة ودعوته المسيحيّة.

٣- Cf. ARMINJON B., *La cantate de l'amour* (Paris, 1983) 218.

٤- Cf. KEEL O., *Op. cit.*, p. 172.